الإمام الشوكاني

أعـلام التفسيـر

الإمام الشوكاني
صاحب التفسير المسمى بـ: " فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير "

الإمام، العلامة الرباني، والسهيل الطالع، من القطر اليماني، إمام الأئمة، ومفتي الأمة، بحر العلوم، وشمس الفهوم، سند المجتهدين الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، نادر الدهر، شيخ الإسلام، قدوة الأنام، علامة الزمان، ترجمان الحديث والقرآن، علم الزهاد، أوحد العباد، قامع المبتدعين، آخر المجتهدين، رأس الموحدين، تاج المتبعين، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، قاضي الجماعة، شيخ الرواية والسماعة، عالي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد، على الأكابر الأمجاد، المطلع على حقائق الشريعة ومواردها، العارف بغوامضها ومقاصدها.

هو: أبو علي بدر الدين محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن إبراهيم بن محمد العفيف بن محمد بن رزق، الشوكاني.

وقد أوصل الشوكاني نسب ة إلى سيدنا آدم - عليه السلام - عند ترجمته لوالده - رحمه الله تعالى - في البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.

ولد - رحمه الله تعالى - يوم الإثنين الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة 1173 هجريه في بلدة " هجرة شوكان ".

قال الإمام الشوكاني - عند الكلام على ترجمة والده:

" ونسبة صاحب الترجمة إلى شوكان ليست حقيقية؛ لأن وطنه ووطن سلفه وقرابته هو مكان عدني - أي جنوبي - " شوكان " بينه وبينها جبل كبير مستطيل يقال له: " هجرة شوكان " فمن هذه الحيثية

كان انتساب أهله إلى " شوكان ".

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ - رحمه الله تعالى - بصنعاء اليمن، وتربى في بيت العلم والفضل فنشأ نشأة دينية طاهرة، تلقى فيها معارفه الأولى على والده وأهل العلم والفضل في بلدته، فحفظ القرآن الكريم وجوّده، ثم حفظ كتاب " الأزهار " للإمام " المهدي " في فقه الزيدية، ومختصر الفرائض للعُصيفيري و الملحة للحريري، والكافية والشافية لابن الحاجب، وغير ذلك من المتون التي اعتاد حفظها طلاب العلم في القرون المتأخرة.

وكان - رحمه الله تعالى - كثيرا لاشتغال بمطالعة كتب التاريخ، والأدب، وهو لايزال مشتغلاً بحفظ القرآن الكريم.

ومما ساعد الإمام الشوكاني على طلب العلم والنبوغ المبكر: وجوده وتربيته في بيت العلم والفضل، فإن والده - رحمه الله تعالى - كان من العلماء المبرزين في ذلك العصر، كما أن أكثر أهل هذه القريه كانوا - كذلك - من أهل العلم والفضل.

قال الشيخ " الشوكاني " عن والده وأهل قريته: "... وهذه الهجرة معمورة بأهل الفضل والصلاح والدين من قديم الزمان، لايخلو وجود عالم منهم في كل زمن، ولكنه يكون تارة في بعض البطون، وتارة في بطن أخرى، ولهم عند سلف الأئمة جلالة عظيمة، وفيهم رؤساء كبار، ناصروا الأئمة، ولاسيما في حروب الأتراك، فإن لهم في ذلك اليد البيضاء، وكان فيهم إذ ذاك علماء و فضلاء، يعرفون في سائر البلاد الخولانية بالقضاة ".

وهكذا استطاع " الشوكاني " أن يستفيد من علماء عصره، وما أكثرهم، فأخذ يطلب العلم بجميع فنونه: فقرأ " شرح الأزهار " على والده، و " شرح الناظري " على " مختصر العصيفيري ".

كما قرأ " التهذيب " للعلامة التفتازاني، و " التلخيص " في علوم البلاغة للقزويني، والغاية لابن الإمام، و " مختصر المنتهى " لابن الحاجب في أصول الفقه، و " منظومة الجزري " في القراءات و " منظومة " الجزار في العروض، و " آداب البحث والمناظرة " للإمام العضد، وما إلى ذلك من سائر العلوم النقلية والعقلية.

وظل هكذا ينتقل بين العلماء، يتلقَّى عليهم، ويستفيد منهم، حتى صار إماماً يشار إليه بالبنان، ر أسًا يرحل إليه، فقصده طلاب العلم والمعرفة للأخذ عنه، من اليمن والهند، وغيرهما حتى طار صيته في جميع البلاد، وانتفع بعلمه كثير من الناس.

وقد تأثر الإمام الشوكاني بشخصيَّات كثيرة من العمالقة الذين كانوا قبله:

منهم من بلده اليمن، وأشهرهم: العلامة محمد بن إبراهيم الوزير، والعلامة محمد بن إسماعيل الأمير (ت 1182ه-)، والعلامة الحسن بن مهدي المقبلي (ت 1108ه-)، والحسين أحمد الجلال (ت 804 ه-).

ومنهم من غير بلده ولم يكونوا في عصره، وعلى رأسهم: إمام الدنيا ابن حزم الأندلسي (ت 456ه -)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 ه-) [1].

صفاته الخلقية والخُلقية:

لم تذكر كتب التاريخ والتراجم عن صفاته " الخلقية " سوى أنه كان متوسط الطول، كبير الرأس، عريض الجبهة، بادي الصحة، موفور العافية.

أما صفاته " الخُلقية " فكثيرة ومشهورة، حتى ألف في مناقبه وفضائله الكثيرون من تلاميذه، منهم:

(1) البدر الطالع، " 2/ 214 "، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص 13.

1 - السيد العلامة إبراهيم بن عبدالله الحوثي.

2 - العلامة محمد بن محمد الديلمي.

3 - القاضي العلامة محمد بن حسن الشجني الذماري، ألف في ذلك كتاباً حافلاً سماه: " التقصار في جيد زمن علامة الأقليم والأمصار ".

والواضح في حياة " الشوكاني " أنه بدأ حياته منقبضاً عن الناس، لايتصل بأحد منهم، إلا في طلب العلم ونشره، ولا سيما هؤلاء الذين يحكمون أو يتصلون بالحاكمين، وكان يرسل فتاويه، ويصدر أحكامه دون ان يتقاضى عليها أجراً.

وكانت حياته بسيطة متقشفة، يعيش على الكفاف الذي وفره له والده فلما تولى القضاء، وأجزل له الأجر، تنعم في مأكله ومشربه وملبسه ومركبه، وأضفى على تلاميذه وشيوخه مما وسع الله عليه به.

ويذكر بعض المؤرخين أن " الشوكاني " اختص بالكثير من الإقطاعات والصدقات، وهم يؤكدون أنه لم يترك من ذلك شيئاً، بعد عمل في القضاء دام أكثر من أربعين عاماً، بل كان ينفق ذلك كله في طرق الخير والبر. ومن المؤكد - كذلك - أن الدنيا لم تكن أكبر همه، وأن عرضها الزائل لم يكن يشغله عن الهدف الأسمى الذي وضعه لنفسه، وهو نشر دين الله تعالى وإحقاق الحق. ولذلك كان يقدر أهل العلم والفضل، الذين لايتكالبون على جمع حطام الدنيا، والتقرب إلى الحكام.

فيذكر بالتقدير والإجلال ذلك العالم الفاضل: " إسماعيل بن علي ابن حسن " الذي كان يحضر مجلس الإمام ويقول: " لم أسمع منه على طول مدة اجتماعي به هناك مؤذنة بالخضوع لمطلب من مطالب الدنيا، لا تصريحاً و لا تلويحاً ".

وكان " الشوكاني " باراً بشيوخه وتلاميذه، فتح أمامهم أبواب العمل في الدولة، ودافع عنهم، وتشفع لهم عند الأئمة في كل أمر وقعوا فيه. وبالرغم من حدة ذكائه، وجودة ذهنه، وتشدده لآرائه واجتهاداته، لم يكن يحط من قدر علمه ليدخل في مهاترات المتعالمين، وكانت قسوته على الأفكار والآراء، لاعلى الأشخاص، لأنه كان يدرك أنه سبق هذا الجيل بأجيال، فترك ثروته العلمية والفكرية لتتفاعل مع الزمن، يكشف عن وجهها ما تبديه قرائح العلماء ".

وبالجمله: فمحل القول في هذا الأمام ذو سعة، فإن وجدت لساناً قائلاً فقل:

زد في العلا مهما تشا رفعة : وليصنع الحاسد ما يصنع
فالدهر نحوي كما ينبغي :: يدري الذي يخفض أو يرفع

عقيدته:

يرى " الشوكاني " أن طرق المتكلمين لاتوصل إلى يقين، ولا يمكن أن تصيب الحق فيما هدفت إليه، لأن معضمها - كما يقول - قام على أصول ظنية، لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل، والفريق على الفطرة.فكل فريق منهم قد جعل له أصولاً تخالف ما عليه الآخر، وقد أقام هذه الأصول على ما رآه عنده هو صحيحاً، من حكم عقله الخاص المبني على نظره القاصر، فبطل عنده ما صح عند غيره، وقاسوا بهذه الأصول المتعارضة كلام الله ورسوله في الإلهيات وما يتصل بها من العقائد، فأصبح كل منهم يعتقد نقيض ما يعتقده الآخر.

ثم جعلوا هذه الأصول معياراً لصفات الرب تبارك وتعالى، فأثبتوا لله تعالى الشيء ونقيضه، ولم ينظروا إلى ما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله، بل إن وجدو ذلك موافقاً لما تعقلوه،

جعلوه مؤيداً له ومقوياً، وقالوا: قد ورد دليل السمع مطابقاً لدليل العقل، وإن وجدوه مخالفاً لما تعقلوه، جعلوه وارداً على خلاف الأصل ومتشابهاً وغير معقول المعنى، ولا ظاهر الدلال ة، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم، فافترى على عقله بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه، وجعل ذلك أصلاً يرد إليه أدلة الكتاب والسن ة، وجعل المتشابه عند أولئك محكماً عنده، والمخالف لدليل العقل عندهم موافقاً له عنده.

ومن مظاهر هذا التناقض: ما وقع فيه المعتزلة من مبدأ نفي الصفات، بناء على مبدئهم في التنزيه، وما غلا الأشعرية من الوقوع في التجسيم، بناء على ما ذهبوا إليه من التأويل، والمبالغة في الإثبات[1].

يقول الشوكاني عن هذه المسائل:

" و إن كنت تشك في هذا، فراجع كتب الكلام، وانظر المسائل التي قد صارت عند أهله من المراكز، كمسألة التحسين والتقبيح، وخلق الأفعل، وتكليف مالا يطاق، ومسألة خلق القرآن، فإنك تجد ما حكيته لك بعينه ".

لذلك: كان المسلك القويم في الإلهيات، والإيمان بما جاء فيها، هو مسلك السلف الصالح، من الصحابة والتابعين، من حمل صفات الباري على ظاهرها، وفهم الآيات والأحاديث على ما يوحيه المعنى اللغوي العام، وعدم الخوض في تأويلها، والإيمان بها على ذلك، دون تكلف ولا تعسف، ولا تشبيه ولا تعطيل، وإثبات ما أثبته الله - تعالى - لنفسه من صفاته، على وجه لا يعلمه إلا هو، فإنه القائل جل

(1) البدر الطالع: " 2/ 214 - 215 "، مقدمة كتاب قطر الولي، للدكتور إبراهيم إبراهيم هلال " ص15 "، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص 14.

شأنه :{لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ } [الشورى: ١١]، فأثبت لنفسه صفة السمع والبصر، مع نفي المماثلة للحوادث في الوقت نفسه.

والإمام الشوكاني قد اعتنق هذا المبدأ، وجعل عمدته في الدعوة إلى مذهب السلف هاتين الآيتين الكريمتين:

أولهما قوله تعالى: {لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ } [الشورى: ١١].

وثانيهما قوله تعالى: { يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠} [طه: ١١٠].

ففيهما الإثبات والنفي، إثبات صفات الباري - جلَّ شأنه - ونفي مماثلة هذه الصفات للحوادث، ثم تقييد هذا الإثبات بظاهر ما صرحت به الآيات وأجملته، والزجر عن الخوض في كيفية هذه الصفات.

وقد سجل الشوكاني آراءه ومذهبه في ثنايا كتبه المختلفة ولاسيما كتابيْ:

1 - " التحف في مذاهب السلف ".

2 - " كشف الشبهات عن المشتبهات ".

هذا، وقد اعتنق الشوكاني هذا المذهب بعد طول بحثه ومطالعة في كتب " علم الكلام " حتى صرح بأنه لم يعتنق مذهب السلف تقليداً، وإنما عن اجتهاد و اقتناع.

ولذلك يقول: " ولتعلم أني لم أقل هذا تقليداً لبعض من أرشدك إلى ترك الاشتغال بهذا الفن، كما وقع لجماعة من محققي العلماء، بل قلت هذا بعد تضييع برهة من العمر في الاشتغال به، وإحفاء السؤال لمن يعرفه، والأخذ عن المشهورين به، والإكباب على مطالعة كثير من مختصراته و مطولاته، حتى قلت عند الوقوف على حقيقته أبياتاً

منها:

وغاية ما حصلته من مباحثي ... ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حيرة ... فما علم من لم يلق غير التحير
على أنني قد خضت منه غماره ... وما قنعت نفسي بدون التبحر

مذهبه الفقهي:

تفقه الشوكاني في أول حياته على مذهب الإمام " زيد بن علي بن الحسين " وبرع فيه، وفاق أهل زمانه، حتى خلع ربقة التقليد، وتحلى بمنصب الاجتهاد، فألف كتابه: " السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار " فلم يقيد نفسه بمذهب الزيدية، بل صحح ما أداه إليه اجتهاده بالأدلة، وزيف مالم يقم عليه الدليل، فثار عليه أهل مذهبه، من الزيدية، المتعصبون لمذهبهم في الأصول والفروع، فكان يقارعهم بالدليل من الكتاب والسنة، وكلما زادوا ثورة عليه زاد تمسكه بمسلكه، حتى ألف رسالة سماها: " القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد " ذهب فيه إلى ذم التقليد وتحريمه، فزاد هذا في تعصبهم عليه، حتى رموه بأنه يريد هدم مذهب آل البيت، فقامت - بسبب هذا - فتنة في " صنعاء " بين خصومه وأنصاره، فرد عليهم بأنه يقف موقفاً واحداً من جميع المذاهب، ولا يخص مذهب الزيدية بتحريم التقليد فيه.

وهكذا اختار " الشوكاني " لنفسه مذهباً لا يتقيد فيه برأي معين من آراء العلماء السابقين، بل على حسب ما يؤديه إليه اجتهاده، وهذا ما يلحظه القار ئ لكتابه " نيل الأوطار " حيث ينقل آراء ومذاهب علماء الأمصار، وآراء الصحابة والتابعين، وحجة كل واحد منهم، ثم

يختم ذلك ببيان رأيه الخاص، مختاراً ما هو راجح فيما يقول [1].

ويرى أن الاجتهاد قد يسره الله تعالى للمتأخرين، وأنه أصبح ميسوراً أكثر مما كان في الصدر الأول فيقول: "... فإنه لا يخفى على من له أدنى فهم، أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين، تيسيراً لم يكن للسابقين؛ لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت، وصارت من الكثرة إلى حد لا يمكن حصره، وكذلك السنة المطهرة، وتكلم الأئمة في التفسير، والتجريح والتصحيح، والترجيح، بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد، وقد كان السلف الصالح، ومن قبل هؤلاء المنكرين يرحل للحديث الواحد، ومن قطر إلى قطر، فالاجتهاد على المتأخرين أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين، ولا يخالف في هذا من له فهم صحيح، وعقل سوي ".

مكانته العلمية:

إن واحداً كالإمام الشوكاني، صاحب التصانيف المختلفة، والآثار النافعة ليتحدث عن نفسه بهذه الآثار، وقديماً قيل:

تلك آثارنا تدل علينا ... فاسألوا بعدنا عن الآثار

فهو - بحق إمام - الأئمة، ومفتي الأئمة، بحر العلوم، وشمس الفهوم، سند المجتهدين الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، نادرة الدهر، شيخ الإسلام، علامة الزمان، ترجمان الحديث والقرآن، علم الزهاد، أوحد العباد، قامع المبتدعين، رأس الموحدين، تاج المتبعين، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، قاضي قضاة أهل السنة والجماعة، شيخ الرواية والسماع، علي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد، على الأكابر الأمجاد، المطلع على حقائق

(1) محمد حسن بن أحمد الغماري، الإمام الشوكاني مفسرًا، " ص62 - 63 " بتصرف، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص 15.

الشريعة ومواردها، العارف بغوامضها ومقاصدها.

هكذا وصفه أحد تلاميذه العلامة: حسين بن محسن السبعي الأنصاري اليماني.

وقال عنه العلامة حسن بن أحمد البهكلي في كتابه " الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني " : " السنة الخمسون بعد المائتين والألف، وفيها في شهر جمادى الآخرة كانت وفاة شيخنا " محمد بن علي الشوكاني " وهو قاضي الجماعة، شيخ الإسلام، المحقق العلامة الإمام، سلطان العلماء، إمام الدنيا، خاتمة الحفاظ بلا مراء، الحجة النقاد، علي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد ".

ثم قال: " وعلى الجملة: فما رأى مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله علماً وورعاً، وقياماً بالحق، بقوة جنان، وسلاطة لسان ".

وقال عنه العلامة: صديق حسن خان: "... أحرز جميع المعارف، واتفق على تحقيقه المخالف والمؤالف وصار المشار إليه في علوم الاجتهاد بالبنان، والمجلي في معرفة غوامض الشريعة عند الرهان.

له المؤلفات الجليلة الممتعة المفيدة النافعة في أغلب العلوم، منها: " نيل الأوطار " شرح منتقى الاخبار لا بن تيمية، لم تكتحل عين الزمان بمثله في التحقيق، ولم يسمح الدهر بنحوه في التدقيق، أعطى المسائل حقها في كل بحث على طريق الإنصاف، وعدم التقيد بالتقليد ومذهب الأخلاف والأسلاف، وتناقله عنه مشايخه الكرام فمن دونهم من الأعلام، وطار في الآفاق في زمن حياته، وقر ئ عليه مراراً، وانتفع به العلماء ".

وقال عنه العلامة عبدالحي الكتاني: " هو الإمام خاتمة محدثي المشرق وأثريه، العلامة النظار الجهبذ القاضي محمد بن علي الشوكاني ثم الصنعاني... وقد كان الشوكاني المذكور شامة في وجه القرن المنصرم، وغرة في جبين الدهر، انتهج من مناهج العلم ما عميَ على

كثير ممن قبله، وأوتي فيه من طلاقة القلم والزعامة مالم ينطق به قلم غيره، فهو من مفاخر اليمن بل العرب، وناهيك في ترجمته يقول الوجيه عبدالرحمن الأهدل من " النفس اليماني " لما ترجم شيخهما عبدالقادر الكركباني: " وممن تخرج بسيدي الإمام عبدالقادر بن أحمد. ونشر علومه الزاهرة، وانتسب إليه وعوّل في الاقتداء في سلوك منهاج الحق عليه. إمام عصرنا في سائر العلوم. وخطيب دهرنا في إيضاح دقائق المنطوق والمفهوم، الحافظ المسند الحجة، الهادي في إيضاح السنن النبوي إلى المحجة، عز الإسلام محمد بن علي الشوكاني:

إن هزَّ أقلامَهُ يوماً ليعملها ... أنساك كلَّ كميٍّ هزَّ عاملَهُ
وإن أقرَّ على رَقٍّ أناملَهُ ... أقرَّ بالرِقّ كُتّابَ الأنام لهُ (1)

فإن هذا المذكور من أخص الآخذين عن شيخنا الإمام عبدالقادر. وقد منح الله هذا الإمام ثلاثة أمور لا أعلم أنها في هذا الزمن الأخير جمعت لغيره: الأول: سعة التبحر في العلوم على اختلاف أجناسها وأنواعها. الثاني: كثرة التلاميذ المحققين أولي الأفهام الخارقة الحقيق أن ينشد عند جمعهم الغفير:

إني إذا حضرتني ألفُ محبرةٍ ... نقولُ أخبرني هذا وحدثني
صاحتْ بعقوتها الأقلامُ قائلةً ... " هذي المكارمُ لا قعبانِ من لبنِ "

الثالث: سعة التآليف المحررة، ثم عدد معظمها كالتفسير ونيل الأوطار وإرشاد الفحول والسيل الجرار، ثم نقل أن مؤلفاته الآن بلغت

(1) البدر الطالع، 1/ 464 - 466، 2/ 334، محمد حسن بن أحمد الغماري ، الإمام الشوكاني مفسرًا، " ص62 - 63 " بتصرف، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص 16.

مائة وأربعة عشر تأليفاً مما قد شاع ووقع في الأمصار الشاسعة الانتفاع بها فضلاً عن القريبة، ثم أنشد:

كلّنا عالمٌ بأنك فينا : نعمةٌ ساعدتْ بها الأقدارُ
فوَقَتْ نفسَكَ النفوسُ من الشرّ :: وزيدتْ في عمرك الأعمار "

ثم أشار إلى من أفرد ترجمته بالتأليف... ".

وقال عنه إبراهيم بن عبدالله الحوثي: " زعيم أرباب التأويل سمع وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحجث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه في البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في الحديث والتفسير والأصول والفروع والتاريخ ومعرفة الرجال وحال الأسانيد في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل وغير ذلك ".

وقال فيه لطف بن أحمد جحاف: " أحفظ من أدركناه لمتون الحديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان شيوخه وأقرانه يعترفون له بذلك ".

وقال عنه كحال ة: " مفسر محدث، فقيه أصولي مؤرخ أديب نحوي منطقي متكلم حكيم صارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع الناس بها بعد وفاته، وتفسيره " فتح القدير " و " نيل الأوطار " في الحديث من خير ما أخرج للناس كما يلاحظ أن الشوكاني يدخل في المناقشات الفقهية ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم في تفسير كل آية تتعلق بالأحكام "

وقال عنه الأستاذ الفاضل محمد سعيد البَدْري: " واعلم - هدانا الله وإياك - أن لهذا الرجل خصائص قلَّ أن تجدها في غيره من العلماء وهي: سعة العلم والتحرر من التقليد بالاجتهاد والتمسك الفعلي بالكتاب والسنة وتقديمهما على ما سواهما كائناً من كان (وهذه سمة

المجتهدين دون المقلدين) والإنصاف من الخصوم.

والحق أن هذه الخصائص لمسناها في كثير من كتبه وبالأخص هذا الكتاب - يقصد إرشاد الفحول - ولذا فأنا أعده من أئمة المجتهدين حتى وإن خالفته في بعض المسائل، رحمه الله تعالى ".

وقال عنه الدكتور محمد حسن بن أحمد الغماري: " كان محمد بن علي الشوكاني على مبلغ عظيم من العلم شهد له بذلك علماء عصره ومن أتى بعده بسعة علمه وغزارة مادته في مختلف الفنون، وامتدحه الناس شعراً ونثراً وكاتبه الملوك والعلماء من مختلف الأقاليم وألف في شتى العلوم في التفسير والحديث وعلومهما والفقه والنحو والمنطق والتاريخ والأصول والأدب وله الشعر الرائق والنثر البليغ، صارت مؤلفاته منتجع العلماء وسار بها الركبان في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته.

ألف " نيل الأوطار " فابدع وأودع فيه الفرائد، وصنف تفسيره العظيم فكان جامعاً لما تفرق في غيره وترجم لأعيان من بعد القرن السابع فأتى بالعجب العجاب وأنه ليعجب الناظر كيف تهيئ له أن يلم بتراجم أعيان ستة قرون كأنه عاش معهم مع أن الكثير منهم لم يكونوا من أبناء اليمن الذي عاش الشوكاني فيه ترجم لكل واحد منهم بانصاف ونزاهة.

وألف في الفقه " الدراري المضيئة " فأبدع فيه وأحسن وألف " السيل الجرار " الذي لم تخط بنات الأفكار بمثله أقام الدليل وزيف الرأي المحض وألف " الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة " واستدرك على ابن الجوزي والسيوطي وابن عراق كثيراً مما فاتهم ونبه على أوهامهم في الحكم على بعض الأحاديث بالوضع.

وأما أصول الدين فهو فارس ميدانها وحامل مشعلها فقد حارب الشرك والبدع وأبلى في سبيل العقيدة الإسلامية بلاء حسناً اقتداء

بالأنبياء والمرسلين والدعاة المخلصين فلقي من الناس العنت والأود وناصبوه العداء ورموه عن قوس واحدة... ".

وقال عنه خير الدين الزِرِكْلي: " فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء... وكان يرى تحريم التقليد "[1].

توليه القضاء:

في عام 1209 من هجرة المصطفى ﷺ توفي كبير قضاة اليمن، القاضي يحيى بن صالح الشجري السحولي، وكان مرجعَ العامة والخاصة، وعليه المعوَّل في الرأي والأحكام، ومستشار الإمام والوزارة.

قال الشوكاني: " وكنتُ إذ ذاك مشتغلاً بالتدريس في علوم الاجتهاد والإفتاء والتصنيف منجمعاً عن الناس لا سيما أهل الأمر وأرباب الدولة، فإني لا أتَّصِل بأحدٍ منهم كائنًا من كان، ولم يكن لي رغبة في غير العلوم... فلم أشعر إلا بِطلابٍ لي من الخليفة بعد موت القاضي المذكور بنحو أسبوع، فعزمتُ إلى مقامه العالي، فذكر لي أنه قد رجح قيامي مقام القاضي المذكور، فاعتذرتُ له بما كنت فيه من الاشتغال بالعلم، فقال: القيام بالأمرين ممكنٌ، وليس المراد إلا القيام بفَصْل ما يصل من الخصومات إلى ديوانه العالي في يَوْمَي اجتماع الحكام فيه. فقلت: سيقع مني الاستخارة لله والاستشارة لأهل الفضل، وما اختاره الله ففيه الخير. فلمَّا فارقته ما زلتُ مُتردِّدًا نحو أسبوع، ولكنَّه وفد إليَّ غالبُ مَنْ ينتسب إلى العلم في مدينة صنعاء، وأجمعوا على أن الإجابة واجبة، وأنهم يخشوْن أن يدخل في هذا المنصب - الذي إليه مرجِعُ الأحكام الشرعية في جميع الأقطار اليمنية - مَنْ لا

(1) البدر الطالع، 1/ 464 - 466، 2/ 334، محمد حسن بن أحمد الغماري، الإمام الشوكاني مفسرًا، ص71 بتصرف، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص 17.

يُوثَقُ بدينه وعلمه. فقبلتُ مستعيناً بالله ومتّكلاً عليه. وأسأل الله بحَوْلِه وطوْله أن يرشدني إلى مراضيه، ويحول بيني وبين معاصيه، وييسِّر لي الخير حيث كان، ويدفع عني الشر، ويُقيمني في مقام العَدْل، ويختار لي ما فيه الخير في الدين والدنيا ".

وربَّما أن الشوكاني رأى في منصب القضاء فرصةً لنَشْر السُّنَّة وإماتة البدعة، والدعوة إلى طريق السلف الصالح.

كما أن منصب القضاء سيصدُّ عنه كثيراً من التيارات المعادية له، ويسمح لأتباعه بنَشْر آرائه السديدة، وطريقته المستقيمة.

" والأئمة الثلاثة الذين تولى الشوكاني القضاء الأكبر لهم، ولم يُعزل حتى واتته المنية هم:

1 - المنصور علي بن المهدي عباس، ولد سنة 1151ه -، وتوفي سنة 1224ه -. ومدة خلافته 25 سنة.

2 - ابنه المتوكل علي بن أحمد بن المنصور علي، ولد سنة 1170ه -، وتوفي سنة 1231ه -. ومدة خلافته نحو 7 سنوات.

3 - المهدي عبدالله، ولد سنة 1208 ه -، وتوفي 1251 ه -، ومدة خلافته 20 سنة ".

قلتُ: كان تولِّي الشوكاني القضاء كسباً كبيراً للحقِّ، فقد أقام سوق العدالة بيِّنًا، وأنصف المظلوم من الظالم، وأبعد الرشوةَ، وخفَّف من غُلَوَاء التَّعصب، ودعا الناس إلى اتِّباع القرآن والسنة.

إلا أن هذا المنصب قد منعه من التحقيق العلمي، يظهر ذلك إذا ما تتبَّع المرءُ مؤلفاته قبل تولِّيه القضاء وبعده، يجد الفَرْق واضحًا.

شيوخه:

كان الشوكاني طلعة يبحث عن العلم والمعرفة في المظان المختلفة، ويتنقل بين المشايخ بحثاً عن المعرفة، الأمر الذي يجعل البحث عن كل شيوخه عسيراً، وسوف نكتفي هنا بذكر بعض مشايخه المشهورين، فمنهم:

1 - والده: علي بن محمد بن عبدالله بن الحسن الشوكاني المتوفى سنة 1211ه - (35).

فقد تولى ولده بالعناية والرعاية منذ الطفولة، فحفظه القرآن وجوده له، كما حفظه عدداً من المتون ومبادىء العلوم المختلفة، قبل أن يبدأ طلب العلم على غير والده من علماء عصره.

وكان لهذه العناية المبكرة أثرها البارز في بناء شخصية الشوكاني.

2 - أحمد بن محمد بن أحمد بن مطهر القابلي (1158 - 1227ه -).

قال الشوكاني في ترجمته: " وقد لازمتُه في الفروع نحو ثلاث عشر سنة، وانتفعتُ به، وتخرَّجت عليه، وقرأت عليه في: " الأزهار "

و " شرحه " و " حواشيه " ثلاث دفعات: الدفعتين الأوليين اقتصرنا على ما تدعو إليه الحاجة، والدفعة الثالثة استكملنا الدَّقيق والجَّليل من ذلك مع بحثٍ وتحقيق، ثم قرأت عليه " الفرائض " للعصيفري، و " شرحها " للنَّاظري، وما عليه من الحواشي، وقرأتُ عليه " بيان ابن مظفر "

و " حواشيه "، وكانت هذه القراءة بحثٍ وإتقانٍ وتحرير وتقرير ".

3 - أحمد بن عامر الحدائي (1127 - 1197ه - = 1715 - 1783م).

قرأ عليه: " الأزهار " و " شرحه " مرتين، و " الفر ائض " مرتين.

4 - أحمد بن محمد الحرازي المولود سنة 1158ه ـ والمتوفي سنة 1227ه ـ.

تلقى عليه الشوكاني الفقه والفرائض، وظل ملازماً له ثلاث عشر سنة.

5 - إسماعيل بن الحسن المهدي بن أحمد ابن الإمام القاسم بن محمد (1120 - 1206ه ـ).

قرأ عليه: " ملحة الإعراب " للحريري، وشرحها المعروف ب " شرح بحرق "، وفي علم الصرف، والمعاني، والبيان، والأموال.

6 - الحسن بن إسماعيل المغربي (1140 - 1208ه ـ).

قرأ عليه: بعض " الرسالة الشمسيَّة " للقطب، و " حاشيته " للشريف، وفي " المطول " و " حواشيه "، وأكمل لديه دراسة " شرح الغاية "،
و " حاشيته " لسيلان، و " العضد "، و " شرحه على المختصر "، و " حاشية السعد "، وما تدعو إليه الحاجة من سائر الحواشي، وسمع عليه " شرح بلوغ المرام " لجده، وفاته بعض أوله، وبعض " صحيح مسلم "،
و " شرحه " للنووي، وبعض " تنقيح الأنظار " في علوم الحديث، وسمع عليه جميع " سنن أبي داود "، و " تخريجها " للمنذري، وبعض شرح " المعالم " للخطابي، وبعض " شرح ابن رسلان ".

7 - صديق علي المزجاجي الحنفي المولود سنة 1150ه - والمتوفي سنة 1209ه ـ.

شيخ الشوكاني بالإجازة في الحديث وغيره.

8 - عبدالرحمن بن حسن الأكوع (1135 - 1207ه - = 1724 - 1772م).

قرأ عليه أوائل " الشفاء " للأمير الحسين، كتاب في الحديث.

9 - عبدالرحمن بن قاسم المداني (1121 - 1211ه - = 1709 - 1796م).

قرأ عليه " شرح الأزهار " في أوائل طلبه للعلم، وباحثه بمباحث علميَّة فقهييَّة دقيقة.

10 - عبدالقادر بن أحمد شرف الدين الكوكباني المولود سنة 1135ه - والمتوفي سنة 1207ه -.

قرأ عليه الشوكاني العديد من العلوم مثل: علم التفسير، والحديث، والمصطلح، وغير ذلك من الفنون المختلفة.

وكان حجة في سائر العلوم، ومجتهداً مطلقاً، كما يقول الشوكاني عنه.

11 - عبدالله بن إسماعيل النهمي المولود سنة 1150ه - والمتوفي سنة 1228ه -.

قرأ عليه الشوكاني النحو، والصرف، والمنطق، والحديث، والأصول، وغير ذلك.

12 - عبدالله بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي ابن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم (1165 - 1210ه -).

أخذ عنه في أوائل طلبه للعلم " شرح الجامي " من أوله إلى آخره.

13 - علي بن أبراهيم بن علي بن عامر الشهيد، المولود سنة 1140ه - والمتوفي سنة 1207ه -.

سمع عليه " صحيح البخاري " من أوَّله إلى آخره. قال عنه الشوكاني: كان إماماً في جميع العلوم محققاً لكل فن ذا سكينة ووقار قل أن يوجد له نظير.

14 - علي بن هادي عرهب (1164 - 1236هـ).

15 - القاسم بن يحيى الخولاني (1162 - 1209هـ = 1714 - 1794م).

قرأ عليه: " الكافية "، و " شرحها " للسيد المفتي، و " شرح الخبيصي على الكافية "، و " حواشيه "، و " شرح الرضى على الكافية "، وبقي منه بقية يسيرة، و " الشافية "، و " شرحها " للطف الله الغياث، و " السعد "
و " شرحه "، و " شرح الجامي " من أوله إلى آخره.

16 - هادي بن حسن القارني ولد سنة 1164هـ وتوفي سنة 1247هـ.

أخذ عنه القراءات والعربية ثم أخذ عنه في " شرح المنتقى " وغيره.

17 - يحيى بن محمد الحوثي (1160 - 1247هـ = 1747 - 1831م).

أخذ عنه الفرائض، والحساب، والضرب، والمساحة.

18 - يوسف بن محمد بن علاء المزجاجي (1140 - 1213هـ).

سمع منه، وأجازه لفظاً بجميع ما يجوز له روايته، وكتب إليه إجازة بعد وصوله إلى وطنه، ومن جملة ما يرويه عنه: أسانيد الشيخ الحافظ إبراهيم الكردي، وهو يرويها عن أبيه عن جده بطريقة السَّماع.

تلاميذه:

إن واحداً كالإمام " الشوكاني " جمع من العلوم ما جمع، وأحاط بالمعقول منها والمنقول، وبرز في شتى المعارف، وأضاف إليها الكثير، بالنظر الثاقب، والفكر المستنير، وألف العديد من الكتب، لا بد وأن يكون قد تخرج على يديه الكثيرون واستفاد منه العامة والخاصة.

ومن أشهر تلاميذه:

1 - ابنه أحمد بن محمد بن علي الشوكاني ولد سنة 1229هـ، وانتفع بعلم والده وبمؤلفاته، حتى حاز من العلوم السهم الوافر، وانتفع به عدة من الأكابر، تولى القضاء بمدينة " صنعاء " وله مؤلفات وكان من أكابر علماء اليمن بعد والده توفي - رحمه الله تعالى - سنة 1281هـ.

2 - محمد بن أحمد السودي، ولد سنة 1178هـ، لازم الإمام " الشوكاني " من بداية طلبه للعلم، حتى مدحه الشوكاني بقوله:

أعز المعالي أنت للدهر زينة :: وأنت على رغم الحواسد ماجده.

توفي سنة 1236هـ.

3 - محمد بن أحمد مشحم الصعدي الصنعاني، ولد سنة 1186هـ - وتولى القضاء في " صنعاء " وغيرها، وأثنى عليه " الشوكاني " كثيراً، وتوفي سنة 1223هـ.

4 - أحمد بن علي بن محسن، ابن الإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم. ولد سنة 1150هـ - واشتغل بطلب العلم، بعد أن قارب الخمسين، ولازم الإمام " الشوكاني " نحو عشر سنين توفي سنة 1223هـ.

5 - محمد بن محمد بن هاشم بن يحيى الشامي، ثم الصنعاني، ولد سنة 1178هـ - وتوفي سنة 1251هـ.

6 - عبدالرحمن بن أحمد البهلكي الضمدي الصبيائي، ولد سنة 1180هـ.

وتلقى على الشوكاني وغيره، ولكنه كان من أوفى تلاميذ " الشوكاني " ومن الملازمين له، توفي سنة 1227هـ.

7 - أحمد بن عبدالله الضمدي.

أخذ عن الإمام " الشوكاني " وغيره، ولكن صلته بالشوكاني كانت أكثر، حتى صار المرجع إليه في التدريس والإفتاء في " ضمد " وما حولها، وله أسئلة عديدة إلى شيخه " الشوكاني " أجاب له عنها في رسالة سماها " العقد المنضد في جيد مسائل علامة ضمد "، توفي سنة 1222هـ.

8 - علي بن أحمد بن هاجر الصنعاني، ولد في حدود سنة 1180هـ - وتبحر في العلوم النقلية والعقلية، درس على " الشوكاني " علم المنطق وغيره. قال عنه الشوكاني بالنسبة لعلم المنطق: " هو يفهمه فهماً بديعاً، ويتقنه إتقاناً عجيباً، قل أن يوجد نظيره مع صلابة الدين " توفي سنة 1235هـ.

مؤلَّفاته:

خلف الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى ثروة عظيمة من المؤلفات بلغت 278 مؤلفاً، ولا يزال معظمها مخطوطاً رهين الأدراج والأرفف، ولم يكتب له أن يرى نور النشر والطباعة حتى اليوم، ولو رحتُ أسردُ هذه المؤلفات؛ لطال بي الكلام، ولذلك سأقتصر على أهمِّ كتبه المطبوعة، والتي تظهر للقارئ تفنُّن هذا الإمام وإلمامَه بمختلف أنواع العلوم الشرعية:

1 - " فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من التفسير " الذي حوى على درر عظيمة تدلُّ على تبحُّر هذا الإمام في علم التفسير.

2 - " الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ".

3 - " الدُّرر البهيَّة " : متنٌ في الفقه.

4 - وشرحه: " الدَّراري المضيَّه في شرح الدُّرر البهيَّة ".

5 - " السَّيل الجرَّار المتدفِّق على حدائق الأزهار " : وهو كتابٌ قلَّ نظيره فيما يعرف بالفقه المقارن.

6 - " نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار " : الذي طار ذكره وعلا صيته وأصبح مرجعاً لا يستغنى عنه طالب العلم.

7 - " إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول " : وهو من فرائد ما أُلِّف في علوم أصول الفقه.

8 - " تحفة الذاكرين ".

9 - " الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني ".

10 - " البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع " : وهو مرجع مفيد ومهم جداً في رجال وأعلام مَن بعد القرن السابع.

11 - " وبل الغمام على شِفَاءِ الأُوَامِ ".

وغيرها كثير كثير، مما نسأل الله أن يُعين رواد العلم وطلاب المعرفة على نشر كنوزه وإظهار فرائده إلى عالم المنشورات.

وفاته:

توفي الإمام الشوكاني رحمه الله ليلة الأربعاء، لثلاث بقين من شهر جمادى الآخرة، سنة (1250ه - / 1834م)، عن ستٍّ وسبعين سنة وسبعة أشهر، وصلِّي عليه في الجامع الكبير بصنعاء، ودُفن بمقبرة خزيمة المشهورة بصنعاء، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عنا كل خير[1].

التعريف بتفسير " فتح القدير " :

يعتبر هذا التفسير أصلاً من أُصول التفسير، ومرجعاً مهماً من مراجعه، لأنه جمع بين التفسير بالدراية، والتفسير بالرواية، فأجاد في باب الدراية، وتوسَّع في باب الرواية، وقد ذكر مؤلفه في مقدمته أنه شرع فيه في شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية، وفرغ منه في شهر رجب سنة تسع وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية. كما ذكر أنه اعتمد في تفسيره هذا على أبي جعفر النحاس، وابن عطية الدمشقى، وابن عطية الأندلسى، والقرطبى، والزمخشرى، وغيرهم.

(1) البدر الطالع، 1/ 464 - 466، 2/ 334، محمد حسن بن أحمد الغماري ، الإمام الشوكاني مفسرًا ، ص71 بتصرف ، مقدمة كتاب الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، ص 17، وللمزيد عن سيرة الإمام الشوكاني انظر: مقدمة نيل الأوطار طبعة مصطفى البابي الحلبي، معالم تجديد المنهج الفقهي (أنموذج الشوكاني) لحليمة بو كروشة، الشوكاني حياته وفكره للدكتور عبدالغني قاسم غالب الشرجبي، منهج الإمام الشوكاني في العقيدة، للباحث عبد الله نومسوك ، بإشراف دكتور: علي بن محمد ناصر فقيهي، الإمام الشوكاني وإيراده للقراءات في تفسيره.، للباحث: أحمد بن عبد الله أحمد المقرئ بإشراف عبد القادر شيبة الحمد المدرس بالمسجد النبوي.

طريقة الشوكانى في تفسيره :

وطريقة الشوكانى التي سلكها في تفسيره يكفينا في بيانها عبارته التي ذكرها في مقدمة هذا التفسير مبيناً بها منهجه فيه.

قال رحمه الله: " ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها، فأقول : إن غالب المفسِّرين تفرَّقوا فريقين، وسلكوا طريقين، الفريق الأول: اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية، والفريق الآخر : جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللُّغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاءوا به لم يصحوا لها أساساً، وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب ".

ثم قال بعد أن دلل على قوله هذا : " وبهذا يُعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذي وطنت نفسى عليه، والمسلك الذي عزمت على سلوكه إن شاء الله، مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة المعتمدين، وقد أذكر ما في إسناده ضعف، إما لأن في المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربى. وقد أذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد، لأنى أجده في الأصول التي نقلت عنها كذلك، كما يقع في تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى، وغيرهم، ويبعد كل البُعد أن يعلموا في الحديث ضعفاً ولا يبينوه، ولا ينبغى أن يُقال فيما أطلقوه: إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن

ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظن، لأنهم لو كشفوا عنه فثبت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة أو الحُسن، فمَن وجد الأصول التي يروون عنها، ويعزون ما في تفاسيرهم إليها. فلينظر إلى أسانيدها موفقاً إن شاء الله.

" واعلم أن تفسير السيوطى المسمى بالدر المنثور، قد اشتمل على غالب ما في تفاسير السَلَف من التفاسير المرفوعة إلى النبى ﷺ، وتفاسير الصحابة ومَن بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر. وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصار لما تكرر لفظاً واتحد معنى بقولى: ومثله ونحوه، وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها، وجدتها في غيره من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التي لاحت لى، من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو تعقيب، أو جمع، أو ترجيح... فهذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، واشتمل على ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فرائد، وقواعد شرائد، ثم أرجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو اللُّباب، وعجب العُجاب، وذخيرة الطُلاب، ونهاية مآرب أُولى الألباب... وقد سميته " فتح القدير، الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ".

مما تقدم يتضح لك جلياً طريقة المؤلف التي سلكها في تفسيره هذا، وقد رجعت إلى هذا التفسير وقرأت فيه كثيراً، فوجدته يذكر الآيات، ثم يفسِّرها تفسيراً معقولاً ومقبولاً، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك: الروايات التفسيرية الواردة عن السَلَف، وهو ينقل كثيراً عمن

ذكر من أصحاب كتُب التفسير. ووجدته يذكر المناسبات بين الآيات، ويحتكم إلى اللُّغة كثيراً. وينقل عن أئمتها كالمبرد وأبى عبيدة والقرَّاء، كما أنه يتعرض أحياناً للقراءات السبع، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية في كل مناسبة، ويذكر اختلافاتهم وأدلتهم، ويُدلى بدلوه بين الدلاء، فيرجح، ويستظهر، ويستنبط، ويعطى نفسه حرية واسعة في الاستنباط، لأنه يرى نفسه مجتهداً لا يقل عن غيره من المجتهدين.

نقله للروايات الموضوعة والضعيفة :

غير أنى آخذ عليه - كرجل من أهل الحديث - أنه يذكر كثيراً من الروايات الموضوعة، أو الضعيفة، ويمر عليها بدون أن ينبه عليها.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى :{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ} [المائدة: ٥٥]... الآية، وقوله:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} [المائدة: ٦٧]... الآية، يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسن الشيعة، ولا ينبه على أنها موضوعة، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على إمامة علىّ، ففى الآية الأولى يقول:{وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾} [المائدة: ٥٥]، جملة حالية من فاعل للفعلين اللَّذين قبله، والمراد بالركوع: الخشوع والخضوع، أى يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم خاشعون لا يتكبرون. وقيل: هو حال من فاعل الزكاة، والمراد بالركوع هو المعنى المذكور، أى يضعون الزكاة في مواضعها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم، وقيل : المراد بالركوع على المعنى الثاني: ركوع الصلاة، ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة في تلك الحال ".

ثم نراه يذكر في ضمن ما يذكر من الروايات عن ابن عباس أنه قال : تصدَّق علىّ بخاتم وهو راكع، فقال النبي ﷺ للسائل :♂**مَن أعطاك هذا الخاتم ؟ــ** قال: ذلك الراكع، فأنزل الله فيه:{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ

وَرَسُولُهُۥ} [المائدة: ٥٥]،... الآية، ثم يمر على هذه الرواية الموضوعة باتفاق أهل العلم ولا ينبه على ما فيها.

وفي الآية الثانية نجده يروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: " نزلت هذه الآية: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} [المائدة: ٦٧]، على رسول الله ﷺ يوم " غدير خُم "، في عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه "، ويروى عن ابن مسعود أنه قال: " كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ : {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ} [المائدة: ٦٧]، ثم يمر على هاتين الروايتين أيضاً بدون أن يتعقبهما بشيءٍ أصلاً.

ذمه للتقليد والمقلِّدين:

كذلك نلاحظ على الشوكانى أنه لا يكاد يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلِّدى أئمة المذاهب الفقهية، ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله، مُعْرِضون عن سُنَّة رسوله ﷺ. ونحن وإن كنا لا نمنع من الاجتهاد مَن له قدرة عليه بتحصيله لأسبابه وإلمامه بشروطه إلا أنَّا لا ننكر أن في الناس مَن ليس أهلاً للاجتهاد، وهؤلاء لا بد لهم من التقليد. ولستُ في شك من أن الشوكانى مخطىء في حملاته على المقلِّدة، كما أنه قاس إلى حد كبير حيث يطبق ما ورد من الآيات في حق الكفرة على مقلِّدى الأئمة وأتباعهم، وإليك بعض ما قاله في تفسيره.

فمثلاً عندما تعرَّض لقوله تعالى :{ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾} [الأعراف: ٢٨].. قال ما نصه : ".. وإن في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ للمقلِّدة، الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون :{إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

مُّقۡتَدُونَ} [الزخرف: ٢٣]... والقائلون :{وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} [الأعراف: ٢٨]... والمقلِّد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هى التي بقى بها اليهودى على اليهودية، والنصرانى على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية أو النصرانية أو البدعة. وأحسنوا الظن بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغى، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص. فيا مَن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية، أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة، وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأى بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأُمة إلا رسولاً واحداً أمرهم باتباعه، ونهى عن مخالفته فقال: {وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ} [الحشر: ٧]. ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حُجَّة على العباد، لكان لهذه الأُمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى، المكلِّفين للناس بما لم يُكلِّفهم الله به. وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلِّدة لآراء الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سُنَّة رسوله. ووجود مَن يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، وَمَلَكة العقل عندهم ".

وفي سورة التوبة عند تفسيره لقوله تعالى:{ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ} [التوبة: ٣١]، يقول ما نَصه: "... وفي هذه الآية ما يزجر مَن كان له قلب أو أَلقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز، والسُّنَّة المطهَّرة، فإن طاعة

المتمذهب لمن يقتدى بقوله، ويستَّن بسُنَّته من علماء هذه الأُمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى الأخبار والرهبان أرباباً من دون الله. للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، وحرَّموا ما حرَّموا. وحلَّلوا وهذا هو صنيع المقلِّدين من هذه الأمة، وهو أبه به مِنْ شبَّه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء. فيا عباد الله، ويا أتباع محمد بن عبد الله؛ ما بالكم تركتم الكتاب والسُّنَّة جانباً، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما، وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاداه فعلتم بما جاءوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسُّنَّة تنادى بأبلغ نداء، وتُصوِّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموهما آذاناً صُما، وقلوباً غُلْفاً، وأفهاماً مريضة، وعقولاً مهيضة، وأذهاناً كليلة، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ⁝ غويتُ وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا - أرشدكم الله وإياى - كتباً كتبها لكم الموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم، ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأى، بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ.

دعوا كل قول عند قول محمد ⁝ فما آمِنٌ في دينه كمخاطر

اللَّهم هادى الضال، مرشد التائه، موضح السبيل ... اهدنا إلى الحق، وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية ".

وعند تفسيره لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾} [الأنبياء: ٥٢ - ٥٤]، نجده يذم المقلِّدة، وأَئمة المذاهب بما لا يليق أن يصدر من عالِم في حق عالِم آخر ربما كان أفضل منه عند الله، وذلك حيث يقول: "... وهكذا يجيب هؤلاء المقلِّدة من أهل هذه المِلَّة الرأى المدفوع بالدليل... قالوا: هذا قد قال به إمامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلِّدين، وبرأيه آخذين. وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ههنا: {قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾} [الأنبياء: ٥٤]. أى في خسران واضح لا يخفى على أحد، ولا يلتبس على ذى عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوى هذا الخسران خسران. وهؤلاء المقلِّدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسُنَّة رسوله كتاباً قد دُوِّنت فيه اجتهادات عالِم من علماء الإسلام، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه، أو لتقصير في البحث، فوجد ذلك الدليل مَن وجده، وأبرزه واضح المنار، كأنه عَلَم في رأسه نار، وقال: هذا كتاب الله، أو هذه سُنَّة رسول الله، وأنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد ⁝ فما آمِنٌ في دينه كمخاطر

فقالوا كما قال الأول:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ⁝ غويتُ وإن ترشد غزية أرشد

وقد أحسن مَن قال:

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ⁝ ومنهج الحق له واضح

(حياة الشهداء):

هذا... وإن الشوكانى ليقرر في تفسيره هذا: أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، حياة حقيقية لا مجازية، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى :{ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ } [آل عمران: ١٦٩]... وقد اختلف أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية مَن هم؟. فقيل: شهداء أُحُد. وقيل: في شهداء بدر. وقيل: في شهداء بئر معونة... على فرض أنها نزلت في سبب خاص فالاعتبار بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب.. ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة. ثم اختلفوا: فمنهم مَن قال: إنها تُرد إليهم أرواحهم في قبورهم فيتنعمون. وقال مجاهد: يُرزقون من ثمر الجنة، أي يجدون ريحها وليسوا فيها. وذهب مَن عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى : أنهم في حكم الله مستحقون للنعم في الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز، وقد وردت السُّنَّة المطهَّرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم في الجنة يُرزقون ويأكلون ويتمتعوْن ".

(التوسل):

ولكنه مع هذه الموافقة للجمهور، نراه يقف من مسألة التوسل بالأنبياء والأولياء موقف المعارضة، ويفيض في الإنكار على مَن يفعل ذلك في سورة يونس عند تفسيره لقوله تعالى:{ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ } [يونس: ٤٩]... يقول ما نصه: "... وفي هذا أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، وكذلك مَن صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يُطلب من نبى من الأنبياء، أو مَلَك من الملائكة، أو صالح من

الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شيء، الخالق الرازق، المعطى المانع، وحسبك بما في هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده :{لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا} [يونس: ٤٩]، فكيف يملكه لغيره؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره؟ فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّ وجَلَّ. كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حلَّ بهم من المخالفة لمعنى " لا إله إلا الله " ومدلول :{قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١} [الإخلاص: ١].

" وأعجب من هذا، اطلاع أهل العم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أُولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومقرّبين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذى الجلال، وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه، ومُطهّر شريعته من أوضار الشرك، وأدناس الكفر. ولقد توسل الشيطان - أخزاه الله - بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينثلج به صدره، من كفر كثير من هذه الأُمة المباركة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً!! إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ".

(موقفه من المتشابه):

ثم إن المؤلف ـ كما قلنا في ترجمته ـ سَلَفى العقيدة، فكل ما ورد في القرآن من ألفاظ توهم التشبيه حملها على ظاهرها، وفوَّض الكيف إلى الله، ولهذا نراه مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى :{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ} [البقرة: ٢٥]. يقول : " الكرسى : الظاهر أنه الجسم الذي وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك. وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطؤوا في ذلك خطئاً بيّناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً، وقال بعض السَلَف: إن الكرسى هنا عبارة عن العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة :: كراسى بالأخبار حين تنوب :

ورجَّح هذا القول ابن جرير. وقيل: كرسيه: قدرته التي يمسك بها السموات والأرض، كما يقال : اجعل لهذا الحائط كرسياً ... أى ما يعمده. وقيل: إن الكرسى هو العرش، وقيل : هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له. وقيل: هو عبارة عن الملك. والحق القول الأول. ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلى مجرد خيالات وضلالات ".

وعند تفسيره لقوله تعالى :{إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ } [الأعراف: ٥٤]... الآية، يقول ما نصه: " قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السَلَف الصالح: أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه ".

(موقفه من آراء المعتزلة):

وبالرغم من أن الزيدية تأثروا كثيراً بتعاليم المعتزلة، وأخذوا عنهم آراءهم وعقائدهم في غالب مسائل الكلام، فإنَّا نجد صاحبنا لا يميل إلى القول بمبادئهم بل ونجده يرد عليهم، ويعارضهم معارضة

شديدة في كثير من المواقف.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: { وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً } [البقرة: ٥٥]... الآية، يقول ما نصه: "... وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم، لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤية الدنيا، وقد ذهبت المعتزلة ومَن تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا والآخرة. وذهب مَن عداهم إلى جوازها في الدنيا، ووقوعها في الآخرة. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة، وهى قطعية الدلالة، لا ينبغى لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا مَن لم يحظ من العلم بنصيب نافع".

كذلك نراه يرد على الزمخشري في دعواه: أن دخول الجنة مستحَق بسبب العمل الصالح، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى: {وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [الأعراف: ٤٣]... قال الكشاف: " بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة". أقول: يا مسكين... هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه: ♂**سددوا وقاربوا واعملوا، إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله**ـــ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ♂**ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته**ـــ والتصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطلة. وفي التنزيل: { ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ } [النساء: ٧٠]، وفيه: {فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ } [النساء: ١٧٥].

كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين: بأن العين لا تأثير لها في المعين، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى: { وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ } [يوسف: ٦٧]... الآية: " وقد أنكر

بعض المعتزلة كأبى هاشم والبلخى، أن للعين تأثيراً، وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسُّنَّة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم، وأى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك، وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأُصيب بها جماعة في عصر النبوة. ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازدراء على مَن يعمل بالدليل المخالف، فإنه في كثير من المواطن لا يقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد، حتى يضم إلى ذلك الوقاحة في العبارة، على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة، والمذاهب الزائفة. وبالجملة، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة. وإجماع مَن يُعتد به من هذه الأمة سَلَفاً وخَلَفاً، وبما هو مُشاهَد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى، وغيره من أنواع الحيوان هنالك بهذا السبب ".

ويقف الشوكانى من المعتزلة موقف المعارضة في مسألة غفران الذنوب. فعندما تعرَّض لتفسير قوله تعالى: {قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا } [الزمر: ٥٣]... الآية، نجده يقول: "... وأما ما يزعمه جماعة من المفسِّرين من تفسير هذه الآية بالتوبة، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين. وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضب والنون، وبين الملاح والحادى، وعلى نفسها براقش تجنى، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال: { إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ } [النساء: ٤٨]... فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ} [الرعد: ٦]... قال الواحدى :

المفسِّرون كلهم قالوا: إنّ هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يُغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبي ﷺ. قلت: هب أنها في هؤلاء فكان ماذا؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متفق عليه بين أهل العلم. ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها، لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله ".

موقف الشوكانى من مسألة خلق القرآن :

هذا.. ولم يرض الشوكانى موقف أهل السُّنَّة، ولا موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن، وإنما رضى أن يكون من العلماء الوقوف في هذه المسألة، فلم يجزم فيها برأى، وراح ينحى باللائمة على مَن يقطع بأن القرآن قديم أو مخلوق، فعندما تعرَّض لتفسير قوله تعالى: {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾} [الأنبياء: ٢]، يقول ما نصه: "... وقد استدل بوصف الذكّر بكونه مُحْدثاً على أن القرآن محدَث، لأن الذكر هنا هو القرآن، وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد في النزول، فالمعنى: محدث تنزيله " وإنما النزاع في الكلام النفسى. وهذه المسألة - أعنى قدم القرآن وحدوثه - قد ابتلى بها كثير من أهل العلم... ولقد أصاب أئمة السُّنَّة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه، وحفظ الله بهم أُمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم - رحمهم الله - جاوزوا ذلك إلى القول بِقدَمه، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفَّروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال: لفظى بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير مَن وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف، وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يُسمع من السَلَف الصالح من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم إلى وقت قيام

المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام، ولا تُنقل عنهم كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه. هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه ".

هذا هو أهم ما في تفسير الشوكانى من البحوث التي أعطى فيها لنفسه حرية واسعة. خوَّلت له أن يسخر من عقول العامة، وأن يهزأ من تعاليم المعتزلة، وأن يُندَّد ببعض مواقف أهل السُّنَّة. وأحسب أن الرجل قد دخله شيء من الغرور العلمى، فراح يوجه لومه لهؤلاء وهؤلاء، وليته وقف منهم جميعاً موقف الحاكم النزيه، والناقد العف... وعلى الجملة، فالكتاب له قيمته ومكانته، وإن كان لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية، ونرجو أن نوفق إلى العثور على بعض ما لهم في التفسير، وأحسب أنه كثير. والكتاب مطبوع في خمس مجلدات، ومتداوَل بين أهل العلم [1].

* * *

(1) الدكتور محمد حسين الذهبى، التفسير والمفسرون، 4 / 270 - 274.